ابنُ البيطارِ
رئيسُ العَشَّابينَ وطَبيبُ الملوكِ
(593 ـ 646هـ)

أَعزَّائي وأَحبَّائي:

ابنُ البيطارِ، أَحَدُ عُلماءِ النَّباتِ العَربِ الَّذِين ولِدوا في الأَندَلُسِ، ودَرسوا فيها في القرنِ السَّابعِ الهجريِّ، وقَدموا للِفكرِ الإِنسانيِّ خُلاصَةَ جُهدِهِمْ وتَعَبِهِمْ وسَهَرِهِمْ ونَشاطِهِمُ الدَّؤوبِ مِنْ أَجلِ خَيرِ الإِنسانيَّةِ وارتِقاءِ مَعارِفِها وعُلومِها.

لَقَدْ تَحَمَّلَ ابنُ البيطارِ المَشاقَّ، ورَكبَ الوَيلاتِ والأَهوالَ، وهو يَتَنَقَّلُ مِنْ بَلدٍ إِلى آخَرَ بَحثاً عَنِ العِلمِ والمَعرِفَةِ لِيَقتَنِصَها ثمَّ لِيُفيدَ بَني قَومِهِ وأَبناءَ جلدَتِهِ، ثُمَّ سائِرَ الإِنسانيَّةِ بِها. لَمْ يَكتَفِ بِما تَعَلَّمَهُ في بِلادِهِ عَلى يَدِ أَساتِذَتِهِ ومُعَلِّميهِ، وإِنَّما شَغَفُهُ وولوعُهُ بِالعِلمِ والمَعرِفَةِ دَفَعاهُ إِلى الرِّحلَةِ في طَلَبِ العِلمِ، والاطِّلاعِ عَلى مَعارِفِ الآخَرينَ وتجارِبِهِمْ وتَصانيفِهِمْ.

وهوَ لَمْ يَرحَلْ في سَبيلِ طَلبِ العِلمِ إِلى بَلَدٍ عَربيٍّ أَو إِسلاميٍّ مُجاورٍ لِبَلَدِهِ، وإِنما رَحلَ إِلى بِلادِ الرُّومانِ والإِغريقِ؛ بِلادِ ديسقوريدس ذاتِهِ الَّذِي كانَ كِتابُهُ في النَّباتاتِ

والأَعشابِ والأَدويَةِ المُفرَدَةِ المَرجعَ الأَساسيَّ لِكُلِّ باحثٍ في علومِ النَّباتِ والأَعشابِ والتَّطبيبِ.

رَحلَ إلى هُناكَ لِيَطَّلِعَ عَلى النباتاتِ والأَعشابِ الَّتِي ذَكَرها ديسقوريدس ولَمْ تَكُنْ مَوجودَة في البِلادِ العَربيَّةِ والإِسلاميَّةِ، وإِنَّما في بلادِ الرُّومانِ والإِغريقِ، وجَلَبَ مَعَهُ عَيِّناتٍ مِنْها لِيَسْتَخدِمَها في الزِّراعَةِ والتَّطبيبِ.

وبَعدَ عودَتِهِ مِنْ بِلادِ الإِغريقِ، عَملَ طَبيباً وعَشَّاباً مُتَنَقِّلاً بينَ مِصرَ وبِلادِ الشَّامِ، ولاقَى حظْوَةً كبيرَةً في بلاطِ المُلوكِ الأَيوبيِّينَ في مِصرَ والشَّامِ بِشَكلٍ خاصٍّ عِندَ المَلِكِ الصَّالِحِ والمَلِكِ العادِلِ.

وكانَ لا يَحجِبُ عِلمَهُ عَنْ طالِبٍ أَو قاصِدٍ، فَنَشَرَ عِلمَهُ بينَ النَّاسِ، وجَلَسَ لِلسَّاعينَ إِليهِ عِندما انْتَشَرَ صيتُهُ العِلميُّ في البُلدانِ والأَصقاعِ، وقَصَدَهُ طُلَّابُ العِلمِ مِنْ كُلِّ مَكانٍ، واسْتَقَرَّ بِهِ المَقامُ في دِمَشقَ حتَّى أَدرَكَتْهُ الوَفاةُ ودُفِنَ فيها سَنَةَ (646) هجريَّةً.

فَمَنْ هُوَ ابنُ البيطارِ؟

❁ ❁ ❁

هُوَ ضِياءُ الدِّينِ أَبو مُحَمَّدٍ عَبدُ اللهِ بنُ أَحمَدَ المَالِقي النَّباتي المَعروفُ بِابنِ البيطارِ. ولِدَ في بِلادِ الأَندَلُسِ في مَدينَةِ مالِقَةَ عامَ (593) هجريَّةً، ونَشَأَ وتَرَعرَعَ فيها، ومُنذُ نُضوجِهِ العَقليِّ المُبَكِّرِ، وجَدَ في نَفسِهِ ميلاً نَحو الاهتمامِ بالنباتاتِ والأَعشابِ في بيئَةٍ جَبَليَّةٍ وساحليَّةٍ ساعَدَتْهُ عَلى تَنميَةِ مواهِبِهِ في البَحثِ والدِّراسَةِ في النَّباتاتِ والأَعشابِ،

ولاسِيَّما أَنَّ والِدَهُ كانَ يَعمَلُ طَبيباً بيطَريّاً، فَلَمْ تَرْوِ ظَمَأَهُ لِلعِلْمِ مِهنَةُ أَبيهِ، والتَفَتَ إِلى عِلمِ النَّباتِ والأَعشابِ الَّذِي كانَ يُلاقي رِواجاً عَظيماً في بِلادِ الأَندلُسِ بِشَكلٍ خاصٍّ، وصاحَبَ أُستاذَهُ النَّباتيَّ والعَشَّابَ ابنَ الرُّوميَّةِ.

كانَتْ مَدينَةُ مالِقَةَ ـ مسْقَطُ رأْسِ ابن البيطارِ ـ مَدينَةً رائِعةً جَميلَةً هادِئَةً، تَقَعُ عَلى سَواحِلِ بِلادِ الأَندَلُسِ المُطلَّةِ عَلى البَحرِ الأَبيضِ المُتَوَسِّطِ، يُحيطُ بِها سوراً صَخريّاً تَتَلاطَمُ عَلى جَنباتِهِ أَمواجُ البَحرِ، وهيَ مِنَ المُدُنِ القَديمَةِ في بِلادِ الأَندَلُسِ، بَناها الإِغريقُ اليُونانيونَ عَندَما وقَعَتْ تَحتَ سَيطَرَتِهِمْ بِلادُ الأَندَلُسِ قَديماً، وكانَتْ تُسَمَّى حينَها بِلادَ القُوطِ.

وهيَ مَدينَةٌ حَصينَةٌ مَنيعَةٌ وافِرَةُ الخيراتِ آهِلَةٌ بِالعُمرانِ مُكتَظَّةٌ بِالسُّكانِ، ولَها خَمسَةُ أَبوابٍ مُنتَشِرَةٌ عَلى جَوانبِ سورِها مِنْ كافَّةِ اتجاهاتِها.

ومِمَّا ذَكَرَهُ الحَميريُّ في كِتابِهِ «الرَّوضِ المِعطارِ في خَبَرِ الأَقطارِ» عَنْ مَدينَةِ مالِقَةَ أَنها مَذكورةٌ في كُتُبِ الأَوائِلِ، فَقالوا: «مَدينَةُ مالِقَ لا بَأْسَ عَليها ولا فَرقَ، آمِنَةٌ مِنْ جوعٍ وسَبيٍ». وقيلَ: إِنَّ هَذِهِ الكَلماتِ وجِدَتْ في بَعضِ حِجارَتِها نَقشاً بِالقَلَمِ الإِغريقي.

اشْتُهِرَتْ مَدينَةُ مالِقَةَ في ذَلِكَ الزَّمَنِ بِثِمارِ التِّينِ، حيثُ كانَتْ أَشجارُ التِّينِ تُحيطُ بِها مِنْ كُلِّ جانِبٍ، وقَدْ عُرِفَ التِّينُ المَنسوبُ إِليها في بِلادِ مِصرَ والعِراقِ والشَّامِ والهندِ، وكانَ يُحمَلُ إِليها ولَمْ يَكُنْ أَحسَنُ مِنَ التِّينِ المَالقي طيباً ورُطوبَةً وعُذُوبَةً، حَتَّى إِنهُ نُظِمَتْ

فيهِ الأَشعارُ والقَصائِدُ الحِسانُ، حَتَّى إِنَّ القَاضي والمُحَدِّثَ الشَّهيرَ ابن حوطٍ الأَنصاريَّ لَمَّا ولِّيَ القَضاءَ في مالِقَةَ وخَرَجَ النَّاسُ لاستِقبالِهِ أَنشَدَ يَقولُ:

مالِقَةُ حُيِّيتَ يا تينُها ... الفُلكُ مِنْ أَجلِكَ يَأتينَها

نَهَى طَبيبي عَنكَ في عِلَّتي ... ما لِطَبيبي عَنْ حَياتي نُها

وفي وَسَطِ هَذا الجَوِّ المَشحونِ بِالعُذوبَةِ والطِّيبِ لِمدينَةِ مالِقَةَ بَزَغَ نَجمُ ابنِ البيطارِ كَعالِمٍ في النَّباتِ، وكَطبيبٍ عارِفٍ بِالأَدويَةِ والأَعشابِ الشَّافِيَةِ.

❁ ❁ ❁

تَرَدَّدَ ابنُ البيطارِ عَلى أُستاذِهِ ابنِ الرُّوميَّةِ في مَدينَةِ إِشبيليَةَ الَّتِي لا تَبعدُ كَثيراً عَنْ مالِقَةَ، وتَأَثَّرَ بِهِ كَثيراً، فَقَدْ كانَ ابنُ الرُّوميَّةِ مِنْ كِبارِ أَعيانِ مَدينَةِ إِشبيليَةَ وأَبرَزِ عُلمائِها الموسوعيينَ، فَقيهاً مُحَدِّثاً وعالماً بِالنَّباتاتِ والأَعشابِ والأَدويَةِ المُطَبَّبَةِ، وقَامَ بِالرِّحلاتِ المُختَلِفَةِ إِلى بِلادِ مِصرَ والشَّامِ مِنْ أَجلِ الاطِّلاعِ والتَّعرُّفِ عَلى النَّباتاتِ الَّتِي لا تُوجَدُ في الأَندلُسِ، فَانْتَقَلَتْ عَدوَى السَّفَرِ والرِّحلَةِ مِنْهُ إِلى تِلميذِهِ ابنِ البيطارِ الَّذِي ما فتئَ هُوَ الآخَرُ عَن طَلبِ الرِّحلَةِ إِلى أَصقاعٍ وبُلدانٍ بَعيدَةٍ مِنْ أَجلِ الغَرَضِ ذاتِهِ.

في البِدايَةِ صَحِبَ ابنُ البيطارِ أُستاذَهُ ابْنَ الرُّوميَّةِ، وكانا يَخرُجانِ سَويَّةً إِلى الأَريافِ والقُرى والجبالِ المُتاخِمَةِ لِمالِقَةَ ولِإِشبيليَةَ لِيُعاينا مَعاً النَّباتاتِ والأَعشابَ، وبَعدَ أَنْ تَمَكَّنَ ابنُ البيطارِ مِنْ هَذا العِلمِ وأَتْقَنَهُ بَدأَ رِحلَتَهُ مُنطَلِقاً مِنَ الأَندَلُسِ بِاتِّجاهِ بِلادِ الرُّومانِ واليُونانِ مارّاً بِكَثيرٍ مِنَ البُلدانِ الأوروبيَّةِ.

وفي بِلادِ اليُونانِ لَقيَ كَثيراً مِنَ المُهتَمِّينَ بِدراسَةِ النَّباتاتِ والأَعشابِ فَاسْتَفادَ مِنْهُمْ، ورافَقَهُمْ لِمُعايَنَةِ النَّباتِ في مواضِعِهِ.

ثُمَّ تَوَجَّهَ في رِحلَتِهِ إِلى بِلادِ الشَّرقِ، ووَفدَ إِلى دَمَشْقَ وأَقامَ فيها فَترَةً مِنَ الزَّمَنِ، وبَلَغَ صيتُهُ الحَسَنُ المَلِكَ العادِلَ نورَ الدِّينِ، فَقَرَّبَهُ إِليهِ وأَكرَمَ عِلمَهُ وشَخصَهُ وصارَ طَبيبَ البلاطِ المَلَكيِّ في دِمشقَ، كَما صارَتْ لَهُ كَلِمَةٌ نافِذَةٌ عِندَ المَلِكِ العَادِلِ نورِ الدِّينِ.

وفي مصرَ لاقَى حظوةً عَظيمَةً في بلاطِ المَلِكِ الكامِلِ ابن أَيوبَ وصارَ يَعتَمدُ عَليهِ في النَّباتاتِ والأَعشابِ، وجَعَلهُ طَبيبَهُ الخاصَّ، وعَيَّنَهُ رَئيساً عَلى العَشَّابينَ والمُطَبِّبينَ في مِصرَ، وهَذا ما أَثارَ عَليهِ حَفيظَةَ العَشَّابينَ المِصريينَ وحِقدَهُمْ وحَسَدَهُمْ لَهُ، فَسَعوا غَيرَ مَرَّةٍ لِلإِيقاعِ بِهِ في مَجلِسِ المَلِكِ الكامِلِ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يُفْلِحوا.

ثمَّ في عَهدِ خَليفَتِهِ المَلِكِ الصَّالِحِ نَجمِ الدِّينِ لاقَى ابنُ البيطارِ مِنْهُ كُلَّ اهتِمامٍ وعِنايَةٍ وتَقريبٍ.

❋ ❋ ❋

ومِنْ خِلالِ إِقامَةِ ابن البيطارِ في مِصرَ، وعَلاقَتِهِ المَتينَةِ مَعَ المَلِكِ الكامِلِ والمَلِكِ الصَّالِحِ شَاعَ صيتُهُ في الآفاقِ، وعَلا ذِكرُهُ بينَ النَّاسِ كَنَباتيٍّ وعَشَّابٍ وطَبيبٍ مُتَمَكِّنٍ مِنْ مِهنَتِهِ، وعارِفٍ بِالأَدويَةِ المُفرَدَةِ لا يَعلو عَلى عِلمِهِ أَحدٌ في ذَلِكَ.

قالَ عَنهُ أَحدُ الباحثينَ المُعاصرينَ: «ابنُ البيطارِ مِنْ أَعظَمِ عُلماءِ المُسلمينَ في النَّباتاتِ والعَقاقيرِ، طَغَتْ شهرَتُهُ عَلَيْهِمْ جَميعاً في القُرونِ الوسْطَى».

ومِمَّا يَدلُّ عَلى تَفوُّقِهِ عَلى أَقرانِهِ في هَذا العِلمِ، ما ذَكَرَ عَنهُ المُحبيُّ في كِتابِهِ «خُلاصَةِ الأَثَرِ في أَعيانِ القَرنِ الحادي عَشَر»:

«إِنَّ طَبيباً عَشَّاباً سَعَى لِلإِيقاعِ بِهِ في مَجلِسِ أَحَدِ السَّلاطينِ، وأَخرَجَ هَذا العَشَّابُ مِنْ جعْبَتِهِ عُشْبَةً أَو نَبْتَةً ودَفَعَها لِلسُّلطانِ ـ وكانَ ابنُ البيطارِ غائِباً عَنْ مَجلِسِ السُّلطانِ ـ وقالَ لَهُ:

هَذِهِ النَّبْتَةُ يا مَولايَ، إِذا جاءَكَ ابنُ البيطارِ فَمرْهُ أَنْ يشُمَّها مِنْ وجهِها الأَوَّلِ. فَلَما دَخَلَ ابنُ البيطارِ عَلى السُّلطانِ دَفَعَ إِليهِ السُّلطانُ النَّبتَةَ وطَلَبَ مِنهُ أَنْ يَشُمَّها مِنْ وجْهِها الأَوَّلِ.

عِندَما نَظَرَ ابنُ البيطارِ إِلى النَّبتَةِ عَرَفَها مِنْ فَورِهِ، فَتَناوَلَها مِنْ يَدِ السُّلطانِ، وقَرَّبَها مِنْ أَنْفِهِ، وأَخذَ يَشُمُّها أَمامَ السُّلطانِ وفقَ ما طَلبَ مِنهُ العَشَّابُ ذَلِكَ.

عِندما شَمَّ ابنُ البيطارِ النَّبتَةَ أَصابَهُ رُعافٌ[1]، ولَكِنَّه قَلَّبَ النَّبْتَةَ بينَ يَديهِ، وشَمَّها مِنْ وجْهِها الثَّاني، فَسَكَنَ رُعافُهُ، وانْقَطَعَ الدَّمُ عَلى الفَورِ مِنْ أَنفِهِ. فَأُعجِبَ السُّلطانُ بِخبْرَتِهِ وذَكائِهِ.

ثُمَّ دَفَعَ ابنُ البيطارِ النَّبتَةَ إِلى السُّلطانِ وقالَ لَهُ:

إِذا جاءَكَ العَشَّابُ الَّذِي أَعطاكَ النَّبتَةَ فَمرْهُ أَنْ يَشُّمَها يا مَولايَ، فَإِنْ عَرَفَ وجْهَها الثَّاني، فَإِنَّهُ طَبيبٌ، وإِنْ عَجزَ عَنْ مَعرِفَتِهِ فَهو مُتَشَيِّعٌ بِما لَمْ يُعطَ.

---

(1) الرُّعافُ: دَمٌ يَنزلُ مِنَ الأَنفِ.

عِندَما عادَ العَشَّابُ إلى السُّلطانِ مَرَّةً أُخرى، دَفَعَ إليهِ النَّبتَةَ وطَلَبَ مِنهُ أَن يَشُمَّها. فَامْتَثَلَ لِأَمرِ السُّلطانِ وحَمَلَ النَّبتَةَ بينَ يَديهِ وشَرعَ في شَمِّها، فَأَصابَهُ الرُّعافُ، وبَدأَ الدَّمُ يَسيلُ مِنْ أَنْفِهِ، ووَقَفُ الرَّجلُ عاجِزاً عَنْ فَعلِ أَيِّ شَيءٍ. فَطَلبَ إليهِ ابنَ البيطارِ، فَلَمَّا حَضَرَ طَلَبَ مِنَ الرَّجلِ أَنْ يَشُّمَ النَّبتَةَ مِنْ وجهِها الآخَرِ، فَسَكَنَ رُعافُهُ».

❋ ❋ ❋

ولا يَخفَى عَلى كُلِّ باحثٍ حَصيفٍ، أَنَّ ابنَ البيطارِ كانَ عالِماً ثَبتاً ثِقَةً وأَميناً في خِدمَةِ العِلمِ وإِفادَةِ النَّاسِ بِما أَكرَمَهُ اللهُ مِنْ مَعرِفَةٍ وعِلمٍ انتَهى إليهِ سَعيُهُ واجْتِهادُهُ.

يَذْكُرُ عنْهُ ابنُ أَبي أُصَيبعَةَ في كِتابِهِ «عيونِ الأَنباءِ في طَبقاتِ الأَطبَّاءِ» ـ وكانَ قَدِ التَقَى بِابنِ البيطارِ واجتَمَعَ مَعهُ في دِمشقَ ـ قائِلاً:

«كُنتُ أَجِدُ عَلى غَزارَةِ عِلمِهِ ودِرايَتِهِ وفَهمِهِ شَيئاً كَثيراً جِداً، وكُنتُ أُحضِرُ لَدينا بَعْضاً مِنَ الكُتُبِ المُؤلَّفَةِ في الأَدويَةَ المُفرَدَةِ مِثلِ كِتابِ ديسقوريدس وجالينوس والغافِقيِّ وأَمثالِهِم من الكُتُبِ الجَليلَةِ في هَذا الفَنِّ، فَكانَ يَذكُرُ أَوَّلاً ما قالَهُ ديسقوريدس في كِتابِهِ بِاللَّفظِ اليُونانيِّ عَلى ما قَدْ صَحَّحَهُ في بِلادِ الشَّامِ، ثُمَّ يَذكُرُ جُمَلاً مِمَّا قالَهُ ديسقوريدس مِنْ نَعتِهِ وصِفَتِهِ وأَفعالِهِ، وما يَتَعَلَّقُ بِهِ. ويَذكُرُ أَيضاً جُملاً مِنْ أَقوالِ المُتَأَخرينَ، ومَنِ اختَلَفوا فيهِ، ومَواضعَ الغَلَطِ والاشتباهِ الذَي وقَعَ لِبَعضِهِمْ في نَعتِهِ».

كَما كانَ ابنُ البيطارِ لا يَذكُرُ دواءً نافِعاً إِلَّا ويَذكُرُ في أَيِّ مَقالَةٍ هُوَ؛ في كِتابِ ديسقوريدس أو في كتابِ جالينوس.

ولَمْ يَكتَفِ بِاستخراجِ الدَّواءِ مِنِ النَّباتاتِ، وإِنَّما حَرصَ عَلى استْخراجِهِ مِنْ بَعضِ المَعادِنِ أَيضاً مِمَّا قَدْ عايَنَهُ وتَعَلَّمَهُ مِنْ أَصحابِ التَّجاربِ الَّذِينَ التَقَى بِهِمْ في رِحلاتِهِ وأَسفارِهِ العِلميَّةِ، وقَدْ كَتَبَ الكَثيرَ مِنَ المُصَنَّفاتِ والرَّسائِلِ والمَقالاتِ. ومِنْ كُتُبِهِ:

1 ـ كِتابٌ في شَرحِ الأَدويَةِ الَّتِي ذَكَرَها ديسقوريدس في كِتابِهِ.

2 ـ كِتابُ المُغني في الأَدويَةِ المُفرَدَةِ.

3 ـ الأَفعالُ الغَريبَةُ والخَواصُّ المُفيدَةُ.

4 ـ كتابُ الجامِعِ في الأَدويَةِ المُفرَدَةِ.

5 ـ الدُّرَّةُ البَهيَّةُ في منافِعِ الأَبدانِ الإِنسانيَّةِ.

6 ـ الإِبانَةُ والإِعلامُ بِما في المِنهاجِ مِنَ الخَلَلِ والأَوهامِ.

الأَسئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1 ـ ماذا تَحَمَّلَ ابنُ البيطارِ، ولِماذا؟

2 ـ ما الَّذِي دَفَعَ ابنُ البيطارِ عَلى الرِّحلَةِ في طَلَبِ العِلمِ؟

3 ـ ماذا يُعتَبَرُ كتابُ ديسقوريدس؟

4 ـ أَينَ تَقَعُ مَدينةُ مالِقَةَ، ومَنْ بَناها، وبِماذا كانَتْ تَشتَهِرُ؟

5 ـ إِلى أَينَ كانَ يَصحَبُ ابنُ البيطارِ أُستاذَهُ ابنَ الرُّوميَّةِ، ولِمَ؟

6 ـ كيفَ عامَلَ المَلِكُ الكامِلُ ابنَ البيطارِ؟

7 ـ ماذا لَحقَ بِابنِ البيطارِ خِلالَ إِقامَتِهِ في مصرَ؟

8 ـ هَلِ اكْتَفى ابنُ البيطارِ بِاسْتِخراجِ الدَّواء مِنَ النَّباتِ، وكيفَ؟